

المسالك التجارية بين المغرب الأوسط وبلاد السودان ومخاطر الطريق

1- أهم المسالك والطرق التجارية: كانت التجارة مع بلاد السودان تتم عن طريق مسالك تتبعها القوافل، وتختلف المسالك من فترة زمنية إلى أخرى وهذا يعود إلى أمن الطرقات وقربها من مركز النشاط التجاري، ويمكننا ان نميز المسالك التالية:

طريق من تيهرت وتلمسان إلى سجلماسة ويتجه جنوبا إلى أودغشت وإقليم التكرور وغانة. وهي أقدم طريق غربي وصفه البكري بدقة، وعد سجلماسة مدخلا لبلاد غانة، ولكن هذا المسلك فقد أهميته ابتداء من القرن التاسع الهجري وذلك لأسباب أساسية تتعلق بالأمن. كما استعمل التجار الإباضيون الموجودون بجبل نفوسة طريق يمر بزويلة ثم يتجه نحو كاوار إلى كانم في مسيرة ثلاثة وعشرين يوما،¹ وهو طريق شاق يمر عبر الجبال والصحاري ولا يوجد به ماء.

نظرا للظروف السياسية والعسكرية التي شهدتها الصحراء ابتداء من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، حيث تعذر الأمن في الطريق الغربي مما أدى إلى الانتقال التدريجي للممرات التجارية نحو الشرق، وكان هذا في عصر دولة الأساقي التي أعطت حركية أكثر للتجارة الصحراوية عبر غاو، يتفرع طريق غاو إلى بلاد الأبير ثم زويلة ثم يتجه شرقا، ويتفرع عنه طريق يتجه جنوبا إلى الكانم والبرنو. أما الثاني فيتفرع من غاو إلى تادمكة وله عدة فروع احدها إلى واحات توات، ويتجه شمالا حيث يتفرع مجددا احدها يصل إلى تونس والمهدية عن طريق واركلا وميزاب، وأحدها إلى تيهرت وتلمسان. وهناك محور ثالث من الهقار ليصل إلى غات وتجه إلى غدامس وطرابلس ويتجه شرقا إلى مصر. ويعد الأسقيا محمد الكبير أول من سلك الطريق الأخير.²

تعد توات من أهم المراكز التجارية في الصحراء الجزائرية في العهد الزياني والفترة الحديثة، وتتفرع عنها عدة طرق تجارية وبقيت بعض هذه المسالك إلى نهاية القرن التاسع عشر، فقد كانت ترتبط توات بالسودان الغربي انطلاقا من تيكديلت بأهم المراكز التجارية على نهر النيجر، منها مسلك يربط أقبلي بتمبكتو (حوالي 1400 كلم)، يتوفر هذا المسلك على الماء والكأ. أما المسلك الثاني فيربط قصور إن صالح وأقبلي بالمراكز التجارية في الضفة الشرقية لنهر النيجر،

¹ البكري، مصدر سابق

² دة. زوليخة بن رمضان.

كمركز كانو وكوكا. كما ترتبط توات بمسالك أخرى منها مسلك إن صالح غدامس ومسلك آخر يربط توات بغرداية ومسلك توات جنوب المغرب الأوسط.³

2-مصاعب التجارة الصحراوية: كانت التجارة مع بلاد السودان محتكرة لشعوب الشمال خلال العصور الوسطى، حيث كانت قوافل الجمال تقطع الصحراء، ويذكر ابن خلدون أنه زار بسكرة فأخبره أميرها يوسف بن مزني أنه "اجتاز بنا هذا العام سنة (754هـ) سفر تجار المشرق إلى بلد مالي كانت زكاتهم اثني عشر ألف راحلة، وذكر لي غيره أن ذلك الشأن كل سنة"⁴، تبدأ القوافل رحلتها في مطلع فصل الخريف حيث يبدأ موسم الأمطار، وتستغرق في ذهابها وإيابها مالا يقل عن فصل من فصول السنة، وتختار القافلة المسالك التي فيها الكأ والماء والأمن، ويستعينون بدليل تدفع له مبالغ باهظة، وتتعرض القوافل لمصاعب عدة منها صعوبة المسالك وقلة الماء، بالإضافة إلى قطاع الطرق، يقول ابن حوقل عن مصاعب الصحراء: "بين المغرب وبلاد السودان مفاوز وبراري منقطعة قليلة الماء متعذرة المراعي، لاتسلك إلا في الشتاء وسلكتها حينه متصل السفر دائم الورود والصدر"⁵ فقد كان المسافرون يعتمدون على أنفسهم في حماية قوافلهم، حيث يحملون السلاح أو يدفعون أموالا لشيوخ القبائل التي يمرون بها مقابل حمايتهم. كما قامت الدولة الزيانية ببناء أبراج مراقبة في المراكز الرئيسية،⁶ ووفر ملوك مالي الأمن طوال الطريق كما ذكر ذلك ابن بطوطة حيث يقول: "ومن أفعال السودان الحسنة أنهم أبعد الناس عن الظلم، وسلطانهم لايسامح أحدا في شيء منه، ومنها شمول الأمن في بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق أو غاصب"⁷.

³ بودواية، مرجع سابق،

⁴ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون،

⁵ أبو القاسم ابن حوقل، صورة الأرض.

⁶ بودواية، مرجع سابق،

⁷ ابن بطوطة، مصدر سابق